

# أندريه مالرو

لهل من النادر أن نرى بين أدباء الغرب المعاصرين أديباً يمثل روح العصر الحاضر مثل الأديب الفرنسي أندريه مالرو . وهو من هذه الناحية ، ومن حيث تأثير فنه على عقلية شباب هذا الجيل الذي نعيش فيه يقف إلى جانب الكاتب الكبير أندريه جيد ، إلا أن كلا منهما يتميز من حيث المشكلة التي يطرحها ويسمى حلها . فأندريه جيد يكاد يقتصر فنه على معالجة المشكلة الجنسية التي يعتبرها مشكلة المشاكل ، بينما يطرق مالرو الشخصية الإنسانية بأكملها ، بكامل غرائزها ، ساعياً لتحديد موقفها في هذا العصر المضطرب الطافح بالانقلابات والتطورات .

و أندريه مالرو منذ ابتداء حياته الأدبية كاتب اجتماعي لا يستطيع أن يتصور كيف يمكن للأديب أن يبتعد عن معالجة مشاكل المجتمع الذي يعيش فيه واتخاذ موقف محدد حياله . ولذا فهو عدو ذلك النفر من الأدباء الذين آمنوا بما أسماه مذهب ( الفن للفن ) أو ( البرج العاجي ) يقبعون فيه غير عابئين بما يدور حولهم من مآسى الحياة ونكباتها حتى بلغ الأمر ببعضهم إلى اعتبار أن مجرد المساس بحقائق الحياة المحزنة الدامية تشويه له « جمال » فنه !

ولم يقتصر مالرو على استخدام القلم لخدمة المجتمع الإنساني ، بل كان يهب كلما سنحت الفرصة ليخدم بقوة السلاح المبادئ السامية التي يؤمن بها . فلم تكذب تنشب ثورة الصين التحريرية بعد الحرب العالمية الأولى حتى سافر إليها يعمل إلى جانب جيوش الوطنيين في سبيل المثل الأعلى الذي كانت تدافع عنه وهو التحرر من الاستعمار الأجنبي . وعند ما قامت الحرب الأهلية الإسبانية عام ١٩٣٦ بادر بالسفر إلى إسبانيا ليحمل في جيوش الجمهورية الشابة كطيار مدافعاً عن سماء مدريد الشهيدة أثناء حصارها . وأخيراً لم تكذب فرنسا نخر على ركبتها عام ١٩٤٠ حتى عاد مالرو إلى حياة الكفاح العملي ، فأبى أن يهجر وطنه في محنته وانضم إلى حركة المقاومة السرية ليكافح الغاصب . ورغم هذه الحياة المضطربة الخطرة لم يهمل مالرو قلبه ، وهو سلاحه الأول للتعبير عن تفكيره ، فاشتغل في كتابة قصة طويلة من ثلاثة أجزاء بعنوان (الصراع مع الملاك) La lutte avec L'ange نشر الجزء الأول منها ، وهو (أشجار ألتنبرج) Les noyers de l'Altenburg في سويسرا عام ١٩٤٣ ، والحرب في أوج سعيها .



كانت أول أعمال مالرو إصداره كتاباً صغيراً بعنوان (إغراء الغرب) La tentation de l'occident ، وهو عبارة عن خطابات

يقارن فيها الكاتب بين مدينتين : . الشرقية والغربية ، ونحس حين قراءتها بألمه وخيبة أمله في مدينة الغرب . وسرعان ما لفت هذا الكتاب الأنظار إلى مؤلفه الذي أحس النقاد بنواحي التجديد في تفكيره وما يختزن في صدره بما يبشر بظهور لون جديد من ألوان الأدب العالمي . وفي عام ١٩٢٨ ظهر كتاب مالرو الثاني ( الغزاة ) Les conquérants وهو أقرب إلى تحقيق صحفي réportage منه إلى قصة . وفي عام ١٩٣١ ظهر كتابه الثالث ( الطريق الملكي ) La voie royale وفي عام ١٩٣٣ أخرج مالرو قصته الشهيرة العالمية ( الطبيعة الإنسانية ) La condition humaine التي نال بها جائزة جومكور لذلك العام ، وهي أكبر الجوائز الأدبية الفرنسية .

وتفكير مالرو الذي يسيطر على جميع أعماله يتحدد منذ صدور كتابه ( الغزاة ) ثم يجلو ويبلغ أقصى وضوحه في كتابه ( الطبيعة الإنسانية ) . كانت هاتان القصتان نوعا جديدا في الأدب الغربي إذ لم يسبق أن عالج الفن القصصي مشاكل المدينة الغربية بالطريقة التي عالجها بها مالرو في هذين الكتابين وسار على نهجها في كتبه التالية ، وذلك من حيث التجديد في الفكرة وحرارة الأسلوب وطهارة الإخلاص .

يرى مالرو أن الإنسان منذ فجر التاريخ يميل بطبيعته إلى الثورة على الأمر الواقع وتحسين الحالة الراهنة واكتشاف ما يحيطه من

المجهول . ولقد كانت الأديان أقوى وسيلة لتمهيد هذا الجرح الطبيعي وإطفاء هذا الغليان الغريزي ، وظل تأثيرها قوى المفعول مدى قرون طويلة وأحقاب عديدة . ولكن الآن والمدنية الغربية قد بلغت مرحلة الاحترام فيها للعقائد . ولا مراعاة لسنن الأديان ، بل ولا اعتبار للأسس التي قامت عليها هذه المدنية التي أوشكت أن تنهار دعائمها بعد أن طفحت القلوب بالشك في قيمتها . . .

الآن ما هو موقف ( الإنسان ) و ( النفس الإنسانية ) ؟ ما هو موقف الفرد الأوروبي أو غير الأوروبي إذا كان من أبناء المدنية الحديثة المتأثرين بتياراتها ، المتحررين من كل قيد تقليدي ؟ يرى مالرو أن الإنسان الجديد يقف أمام أمرين لا ثالث لهما ، فإما الاستسلام للأمر الواقع والتردى وسط هذه الفوضى الغاشمة التي لا ضابط لها ولا حياء فيها ، وإما التعلق بمثل أعلى لخدمة نفسه وخدمة المجتمع البشري ، كما يتعلق الغريق المحتضر بقارب النجاة .

أما الأمر الأول فهو طريق الضعفاء ، فوق أنه لا يتضمن جمال الإحساس بالقيام بعمل سام . وأما الأمر الثاني فهو الطريق السوي الطبيعي لذوى النفوس العالية والإنسانية الواسعة ، وهو الطريق الذي اختاره مالرو لابطاله ، مصورا حياتهم وطريقة تفكيرهم وضروب تضحياتهم وسمو إيمانهم . فترى ( جارين ) في قصة ( الغزاة ) و ( كيو ) في قصة ( الطبيعة الإنسانية ) شخصيتين من تلك الشخصيات

التي لا تستطيع الخضوع لحياة لا غرض لها إلا قضاء أيام متشابهة مملة . فهما يعانيان ذلك المرض الذي لا يختلف كثيراً عن المرض الذي يسمونه «مرض القرن» والذي — كما يرى مالرو — هو بالنسبة لفئة من الناس مرض جميع القرون . . إن هذه الدنيا لا تكفيهم . إنها لا قيمة لها إذا لم تمنحهم الفرصة لانفجار كل نواحي الكفاح والنشاط فيهم . إن حياتهم لا مبرر لها ولا قيمة إذا لم يحققوا للإنسانية أفكاراً سامية . ولما كانت كل مصائب المجتمع الحاضر مبعثها الظلم الاجتماعي وعلاجها إيجاد مجتمع بشري تسوده العدالة الاجتماعية والإخاء الإنساني، لهذا تعتمد مالرو اختيار أبطاله من رجال المثل العليا في السياسة والاجتماع . فإصلاح المجتمع في نظره وتسييره في الطريق الذي تفرضه روح العصر هو الأساس الذي بغيره لا يرجى إصلاح في العلم أو الفن أو الأدب أو الأخلاق أو غيرها .

كان ( جارين ) ثائراً على كل شيء . كان ثائراً على المجتمع . كان ثائراً على الغرب وماديته فهجره إلى الصين حيث الملايين الحاشدة ينشر بينها تعاليمه ويبين لها حقها في الحياة . كان ثائراً على الدين لأن الأديان — في نظره — كانت دائماً على مر القرون هي الميناء الذي تهدأ عنده ثورة النفوس البشرية ويخمد جموحها ، كانت العزائم والملاذ الأخير لكل منكوب ( إذ كيف يمكن لمصاب بالبرص — كما يقول — أن يستسلم لمصيره ولا يسمم الآبار التي يقترب

منها إذا لم يفض قلبه بالأمل في حياة ثانية حيث تعوضه العدالة  
عن مصيبتته وينال النعيم الأزلي ؟ ) .

ف ( جارين ) يريد إذن أن يعيش واقعياً بكل ما في هذه الكلمة من  
معان . إنه يريد أن يحقق الجنة الأرضية لأنه مثالي يؤمن بالمثل  
العليا ويوقن بإمكان تحقيقها بالجهد والتضحية . إنه يستهين بالمخاطر  
ويواجه الموت إلى جانب الأحرار الصينيين في ثورة كانتون راضياً  
مطمئناً . ومثل شخصية ( جارين ) نرى شخصية ( كيو ) وشخصية  
الطالب ( تشن ) في قصة ( الطبيعة الإنسانية ) ، هذين الشابين  
الصينيين اللذين آمنّا إيمان المؤمن بدينه بعدالة قضية الصين في جهادها  
التحريري . هذه الشخصيات الثلاث نراها جميعاً تلقى بنفسها في ذلك  
المحيط الثوري بقوة عنيفة ودافع خفي مستعدين كل تضحية ، لأن  
المثل الأعلى عندهم دين كسائر الأديان ، والدين في حاجة إلى شهداء .  
ومن ذلك نرى أن أندرية مالرو لا يعتقد أن هناك فرقاً بين هؤلاء  
المثاليين وأولئك المتدينين الأوائل الذين كانوا يحطمون الأوثان  
وأقصى آمالهم في الحياة أن يتعذبوا من أجل عقيدتهم . فتصوير  
نفسية هذا النوع الشائع من الشبان المثاليين المتحمسين ، الذين لم  
يحسن المجتمع توجيه غرائز الطموح فيهم ، هو أهم ما يطبع كتب  
مالرو بطابع القوة والتجديد .

وللقارئ أن يتساءل : لم اختار مالرو حوادث قصتيه ( الغزاة )

و ( الطبيعة الإنسانية ) في الصين النائية كما ذكرنا . أليس في بلاد الغرب مجال لظهور هذه الشخصيات ؟ ألم يجد في غير الصين مجالا لظهور الأبطال وأعمال البطولة ؟ إن مالرو العالمى التفكير يتبع النهضة القومية أينما هبت . فكما اشترك بنفسه في كفاح الصينيين القومى ، مما أوحى اليه كتابة قصتيه المشار إليهما ، كذلك حارب في صفوف الجمهوريين الإسبان كما عرفنا وكتب عن الجمهورية الشابة قبل انهيارها المبكر كتابه المشهور ( الأمل ) Espoir ( ١٩٣٧ ) . ولقد وجد مالرو في هذه البلاد الحية بحركاتها الشعبية مجالا خصبا لذلك النوع من الأبطال الذين اختارهم لقصصه . فهو يرى أن العالم الغربى أصبحت تسوده للأسف روح الوطنية المتعصبة . فالحدود مغلقة ، والمادية تغطي على كل شيء ، والفردية يلمسها المرء أينما حل . فأوروبا الآن في نظر مالرو لم يعد فيها إلا نوعان من الكفاح : الأول كفاح العالم الذى يفنى السنين فى اكتشاف علمى ، وهذا الأمر ليس فى متناول غير العلماء المتخصصين ، والثانى كفاح رجل الأعمال لتكديس الأموال ، مما صبغ الحياة كلها بالمادية التى لا تعرف الرحمة . أما هناك ... هناك فى ذلك الشرق البعيد حيث ألسف بين الناس البؤس المشترك والشقاء العميم ، حيث وحّد بين قلوب الملايين الغفيرة الإيمان القوى والقلق العام والحساسية المرهفة ، هناك الحقل البانع لأصحاب المبادئ السامية والمثل العليا

الجريئة التي سرعان ما تشبث بها الجماهير وتنفاني في خدمتها بمجرد إحساسها بأنها طريق الخلاص ، واقفة منها موقف المؤمن بدين جديد جاء ليغير حياته ويبعثه بعثاً جديداً .

\*\*\*

ولقد مدت الحرب الأخيرة ومحنة فرنسا فيها أندريه مالرو بمادة غزيرة لدراسة الشخصية الإنسانية في ظروف جديدة وأماكن غير الأماكن التي وقعت فيها حوادث قصصه السابقة . فسكتب أثناء الحرب كتابه ( أشجار ألتنبرج ) Les noyers de l'Altenburg وهو كما ذكرنا الجزء الأول من قصة طويلة في ثلاثة أجزاء بعنوان ( الصراع مع الملاك ) La lutte avec l'ange .

و ( أشجار ألتنبرج ) عبارة عن ثلاثة أقسام ، القسم الأول تقع حوادثه في يونية عام ١٩٤٠ في أحد السجون في بلدة شارتر بفرنسا ، وفي القسم الثاني يصف الكاتب حياة والده حتى الحرب العالمية الأولى ، فنعرف منه أن والده ألزاسي المولد ، بقي في الإلزاس حتى عام ١٨٧٠ ، ثم عين مدرساً في جامعة استانبول ، وأختير بعد ذلك مستشاراً للجنرال أنور باشا ، ثم أرسل في مهمة إلى أفغانستان ، وبعد سنين طويلة في تلك البلاد الشرقية يعود إلى وطنه الإلزاس حيث يموت والده ( جد الكاتب ) بعد وصوله بفترة قصيرة ، وفي الإلزاس يشترك في أحاديث ألتنبرج ، وهي أحاديث تدور عن

موضوعات معينة في كنيسة قديمة حيث يجتمع تحت زعامة عمه  
والتر ، نخبة من المثقفين والعلماء والأساتذة من مختلف البلدان .  
وفي عام ١٩١٥ تقوده الحرب إلى جبهة الفستولا حيث يشترك في  
هجوم بمساعدة الغازات السامة . وهناك يترك المؤلف والده مغشياً  
عليه في ساحة القتال ، منهك القوى إثر المناظر الوحشية التي  
شاهدها ومن تأثير الغاز ، يتركه ليعود إلى نفسه . وعندئذ يبدأ  
القسم الثالث من القصة ، فنرى أنفسنا في عام ١٩٣٩ نصحب المؤلف  
في سيارته المدرعة حيث يواجه مع رفاقه الموت الحاصد الذي  
يخرجون منه بأعجوبة فينظرون إلى العالم تحت ضوء فجر جديد  
لامع وبعيون جديدة ، عيون نسيت الماضي ولم تعد تعرف غير  
الحاضر . وهنا تنتهي قصة ( أشجار التبرج ) أول جزء من قصة  
( الصراع مع الملاك ) .

ومنذ بداية هذه القصة أيضاً ، في ذلك السجن الموحش المعزول  
عن العالم الخارجي نرى أندريه مالرو يعود إلى موضوعه الرئيسي  
وشاغله الأول في كل كتبه وهو ( الإنسان ) . . اسمعه وهو يقول  
( منذ عشر سنوات لا يشغلني ككاتب غير موضوع واحد هو  
الإنسان ، ذلك هو الموضوع الأساسي في فني ) وهذا الشاغل  
نفسه يمتلك والده أيضاً حين يقص علينا مالرو حياته ويروي لنا  
( مقابلاته ) مع الإنسان ، والتي ما هي إلا مقابلاته الشخصية

مع الموت والقسوة الإنسانية والقدر الغير مفهوم .

يقول مالرو على لسان والده ( إن اللغز الأكبر ليس في أنه ألقى بنا دون حساب بين المواد المتفجرة الغزيرة وبين الكواكب ، بل أننا ونحن في هذا السجن كنا نستمد من أنفسنا صوراً قوية لنكذب واقع حياتنا وهو أننا كائنات لا وجود لها ) وهذا اللغز هو ما تريد ( أحاديث ألتنبرج ) أن تكشفه . فكل المناقشات تدور حول هذه المسألة .. هل يمكن إيجاد تحديد معين لمعنى كلمة إنسان ؟ إن الإنسان بمعناه الحقيقي ما هو الا أسطورة ، هو حلم في ذهن المفكر ( فما الذى نعرفه عن الإنسان ؟ إننا لا نكاد نعرف شيئاً ) فحتى الثقافة لا تعلمنا شيئاً عنه . إنها تعلمنا بكل بساطة ماهية الرجل المثقف بقدر ما هو عليه من ثقافة ( إننا نعرف فقط ( إننا لم نُنخير حين ولادتنا ، وأننا سوف لا نُخير عند موتنا ، وأننا لم نختَر والدينا ، وأننا لا نستطيع شيئاً حيال الزمن ، وأن بين كل منا وبين العالم فاصلاً معيناً . وعند ما أقول إن كل إنسان يحس بقوة بوجود القدر فإننى أقصد أنه يحس — بحرارة ومن وقت لآخر على الأقل — باستقلال الكون عنه وإهمال المجتمع لشأنه ) .

هذا الإحساس المرير من جانب الفرد بعزله في هذا العالم بما دفعه إلى التعلق بالقدر والاستعانة بالخيالات والأوهام لتبرير حياته والرضا بما هو فيه من هو أن هو في نظر مالرو نتيجة تفكك الروابط الاجتماعية في حياتنا الحاضرة وطغيان المادية على كل

اعتبار آخر ، حتى هانت القيم البشرية ، وأصبح الاستهتار بكرامة الإنسان وحياته وتضحيتهما شيئا سهلا في سبيل المآرب الذاتية أمر آما أهونه في هذا العصر ، هذا العصر الذى سماه مالرو بحق وأطلقه عنواناً لأحد كتبه الخالدة : ( عصر الأزدراء ) للخلق

البشرى | Temps de mépris

فالقدر الذى نصادفه في قصص مالرو هو ذلك الملاذ الغامض الذى يلجأ إليه الإنسان حين يحس بوحشته في هذا العالم وتهاطل المظالم والنكبات عليه دون أن يعرف لها مبررا أو تفسيراً . فلكي ننزع الإنسان من استعباد القدرية ونحرر شخصيته ونردله اعتباره يجب — كما يرى مالرو — أن نخلق له مجتمعا واقعيان سوده قوانين العلم والمنطق ، مجتمعا يحس فيه بوجوده ويدرك بين أحضانه أنه يعمل للمجموع ويعمل المجموع له . وهذا المجتمع لا يتحقق إلا بنظام تسوده العدالة والإخاء البشرى وتبرز في ظلاله قوى الفرد ونواحي نشاطه لتتسلط بقوة العقل على قوى الطبيعة الغاشمة وتخضعها لخدمة الإنسان بدل أن تخضعه هي لطيشها وعتوها .

وأسلوب مالرو أسلوب حزين ، عميق كتفكيره ، جامع كفننه الرائع ، ذلك الفن الذى يضعه في مقدمة كتاب العصر التقدميين ، والذى تنبض أرجاؤه بتلك العالمية الواسعة وذلك الهم الذى يحمله فوق ظهره في سبيل الإنسانية وخيرها .